Journal Of the Iraqia University (73-8) June (2025)

ISSN(Print): 1813-4521 OnIine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at: https://www.mabdaa.edu.iq

تجليات الوصف الطبيعي في شعر محمد عفيفي مطر

مرتضى ناظم ضهد الزبيدي
طالب دكتوراه قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة رازي، كرمنشاه، إيران
dbkttjucy@gmail.com
الدكتورة مريم رحمتي
أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة رازي، كرمنشاه، إيران
m.rahmati@razi.ac.ir

Manifestations of Natural Description in the Poetry of Muhammad Afifi matar

Mortada Nazim Dahd
PhD student, Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts and Humanities, Razi University, Kermanshah, Iran
Dr. Maryam Rahmat
Assistant Professor, Department of Arabic Language and Literature Faculty of Arts and Humanities, Razi University, Kermanshah, Iran

مستخلص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة تجليات الوصف الطبيعي في شعر محمد عفيفي مطر، بوصفه أحد أبرز شعراء الحداثة في مصر، والذي شهدت تجربته الشعرية تحولات دلالية عميقة في توظيف عناصر الطبيعة. يتجاوز البحث مجرد الرصد التقليدي لمظاهر الطبيعة، ليتتبع كيفية انتقال الوصف من المحاكاة الحسية إلى بناء فضاء رمزي مركب، حيث أصبحت مفردات الطبيعة (كالليل، والشمس، والأرض، والريح) أدوات للكشف عن رؤية الشاعر الفكرية والوجودية، وتجسيدًا لهمومه الذاتية والوطنية بالاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي، يقوم البحث بتحليل نماذج شعرية مختارة من دواوين الشاعر المختلفة، بهدف استكشاف الأبعاد الرمزية التي حمّلها مطر لهذه العناصر، وكيفية تفاعلها داخل البنية الفنية للقصيدة.
الكلمات المفتاحية: الوصف، الطبيعية، محمد عفيفي مطر، الأرض والوطن، الشعرية العربية الحديثة، الرمز.

Abstract:

This research aims to study the manifestations of natural description in the poetry of Muhammad Afifi Matar, one of the most prominent modernist poets in Egypt, whose poetic experience witnessed profound semantic transformations in the employment of natural elements. The research goes beyond the traditional observation of natural phenomena, tracing how description transitions from sensory imitation to the construction of a complex symbolic space, whereby natural vocabulary (such as night, sun, earth, and wind) becomes tools for revealing the poet's intellectual and existential vision, and an embodiment of his personal and national concerns. Relying on the descriptive-analytical method, the research analyzes selected poetic models from the poet's various collections, with the aim of exploring the symbolic dimensions that Matar attributed to these elements, and how they interact within the artistic structure of the poem.**Keywords:** Description, nature, Muhammad Afifi Matar, land and homeland, modern Arabic poetry, symbol.

المقدمة:

يحتل الوصف مكانة راسخة ومتجذرة في وجدان الشعرية العربية، فهو ليس مجرد غرض من أغراض الشعر المتعددة، بل هو جوهر العملية الشعرية ذاتها، والأداة التي طالما لجأ إليها الشاعر ليرسم عوالمه، وينقل تجربته، ويقيم جسرًا حيًا بين الذات والموضوع، وبين الداخل والخارج. منذ بواكير الشعر الجاهلي، كانت الطبيعة الصحراوية القاسية، بأطلالها الدارسة، وحيوانها الصبور، وليلها المترامي، هي المادة الخام التي صاغ منها الشاعر صوره الأولى، فكان وصفه انعكاسًا مباشرًا لبيئته، ومرآة لحياته الخشنة المليئة بالترحال والصراع. وكما يرى شوقي ضيف أن قصائد الشاعر الجاهلي "كانت وثيقة دقيقة لمن يُريد أن يعرف حياته وبيئته برملها ووديانها ومنعرجاتها ومراعيها وسباعها وحيوانها وزاحفها وطيرها (ضيف،١٩٦٠، ص ٢١٩).١ومع تطور الحياة الحضارية في العصر العباسي، تطور غرض الوصف بدوره، وانتقل من خشونة الصحراء إلى رقة الحدائق وجمال القصور، فأبدع الشعراء في وصف الرياض والزهور ومجالس الشراب، وأصبحت الطبيعة لديهم فضاءً للجمال والزخرف والمتعة الحسية، كما يظهر في شعر البحتري والصنوبري. لقد اتسعت دائرة الوصف لتشمل مظاهر الحضارة الجديدة، وأصبحت أداة لإبراز الترف والبذخ، لكنها ظلت في معظمها تدور في فلك المحاكاة الحسية والجمالية للمشهد الخارجي (هدارة، ١٩٩٣، ص٤٦٦).٢أما في الشعر العربي الحديث، فقد شهد هذا الغرض الشعري تحولًا جذريًا عميقًا، فلم يعد الوصف مجرد نقل أمين للطبيعة أو محاكاة لجمالياتها الظاهرة. لقد أصبح، في ظل التحولات الفكرية والسياسية والاجتماعية التي عصفت بالعالم العربي، أداة للكشف، ووسيلة للترميز، وقناعًا يعبر من خلاله الشاعر عن هواجسه الوجودية ورؤاه النقدية للواقع. وفي هذا السياق، يبرز اسم الشاعر المصري الكبير محمد عفيفي مطر (١٩٣٥–٢٠١٠) كواحد من أبرز الأصوات الشعرية التي أعادت تشكيل علاقة الشعر بالطبيعة، ومنحتها أبعادًا رمزية وفكرية غير مسبوقة. ينتمي مطر إلى جيل الستينيات، وهو جيل شهد هزائم كبرى وتغيرات عنيفة، مما دفع شعراءه إلى البحث عن لغة شعرية جديدة قادرة على التعبير عن هذا الواقع المأزوم، فوجدوا في الطبيعة ملاذًا رمزيًا ومادة خصبة لتشكيل رؤاهم.لم تكن الطبيعة في شعر محمد عفيفي مطر مجرد خلفية تزيينية للقصيدة، بل كانت مكونًا عضويًا فاعلًا، وشخصية حية تتفاعل مع الذات الشاعرة وتشاركها آلامها وآمالها. لقد استلهم مطر عناصر الطبيعة المحيطة به، خاصة تلك المرتبطة ببيئته الريفية في دلتا النيل، الأرض، والطين، والنهر، والشجر، والشمس، والقمر، والليل، ولم يوظفها بوصفها عناصر خارجية، بل استبطنها وجعلها جزءًا من كيانه، لتتحول في شعره إلى رموز مكثفة ومشحونة بالدلالات. فالأرض لديه ليست مجرد بقعة جغرافية، بل هي الأم، والوطن، والجسد المنتهك، والحلم بالخصوبة والانبعاث. والليل ليس مجرد ظاهرة فلكية، بل هو رمز للقهر السياسي والسجن، وفي الوقت نفسه فضاء للمناجاة والسكينة. وكما يرى الدكتور مراد عبد الرحمن مبروك في كتابه النظرية النقدية "إن العامل الثقافي يشكل بعدًا جوهريًا في كل النصوص الشعرية للشاعر، فالرؤية الفلسفية عنده نجدها في تشكيل الصورة، وفي المعاني والصور المركبة، فضلًا عن المكونات البيئية كالساقية والأرض والغمام والموال، يوظفها فنيًا في تشكيل الصورة؛ فيضفي عليها أبعادًا إيحائية ورمزية تخرجها من سياقها الشعبي إلى سياقها الثقافي" (مبروك،٢٠١٥، ص ١٥٢).٣

إشكالية البحث وأهميته:

تنبع إشكالية هذا البحث من مفارقة مركزية في دراسة الشعر العربي الحديث؛ فعلى الرغم من أن الوصف يُعد من أقدم الأغراض الشعرية وأكثرها رسوخًا، إلا أن تحولاته الدلالية والوظيفية في سياق الحداثة الشعرية لم تنل حقها الكامل من الدرس المتعمق، خاصة في التجارب الشعرية التي جعلت من الطبيعة فضاءً رمزيًا معقدًا. وإذا كان النقد الكلاسيكي، كما عند قدامة بن جعفر، قد حصر الوصف في "ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات" (قدامة بن جعفر، ١٩٩٣، ص ١٣٠)٤، فإن الشعرية الحديثة، وخاصة لدى شعراء جيل الستينيات أمثال محمد عفيفي مطر، قد فجّرت هذا المفهوم من الداخل، وحوّلت الوصف من عملية "ذكر" أو محاكاة إلى عملية "خلق" و"رؤيا" وترميز.تتمحور الإشكالية هنا في تفكيك الآليات التي عبر بها محمد عفيفي مطر من الوصف الظاهري للطبيعة إلى شحن عناصرها بدلالات رمزية وفكرية عميقة، لتصبح لغة موازية قادرة على حمل ثقل تجربته الإنسانية والوطنية. فكيف يتحول "الليل" من مجرد زمن إلى "ليل قاسٍ" ينفخ الظلمة في الكون (عفيفي، ١٩٩٨، ص١١٢)٥ وكيف تغدو "الشمس"، مصدر الضوء، "شمسًا حزينة" دامية (المصدر نفسه، ص١٤٤)٦ إن هذه التحولات الدلالية تطرح تساؤلاً جوهريًا حول وظيفة الشعر في إعادة بناء العلاقة بين الذات والعالم، وهو ما يجعل دراسة شعر مطر من هذا المنظور أمرًا ذا أهمية قصوى.تتجلى أهمية البحث في كونه يقدم قراءة معمقة لأحد أهم شعراء الحداثة، متجاوزًا الدراسات العامة التي تناولت تجربته. فهو، أولاً، يسلط الضوء على استراتيجية الترميز الطبيعي كأداة فنية وفكرية أساسية في شعره، وهو جانب لم يحظَ بدراسة متخصصة وكافية رغم الإشارات المتفرقة إليه في النقد. ثانيًا، يقدم البحث نموذجًا تحليليًا لكيفية استيعاب الشعر الحديث لغرض تقليدي وتطويعه لخدمة رؤى معاصرة، مما يغني فهمنا لآليات اشتغال الحداثة الشعرية العربية. وأخيرًا، تكمن أهميته في الكشف عن عمق الوعي المأساوي والوطني في شعر مطر، من خلال تحليل لغته الطبيعية التي أصبحت سجلًا لتاريخ الألم والأمل في آن واحد.

الدراسات السابقة:

هناك الكثير من الدراسات التي تطرقت إلى الوصف وأنواعه في الأشعار والروايات في الأدب العربي لكننا لم نعثر على دراسة تتناول هذا الموضوع "تجليات الوصف الطبيعي في شعر محمد عفيفي مطر" فاختيار هذا الشاعر أمر هام لأن شعره غني يستطيع أن يكون مصدرًا للأوصاف الكثيرة لمعظم المفاهيم منها المادية والمعنوية. فالدراسات التي وجدناها تألفت في هذا المجال هي كتب أو مقالات أو رسائل جامعية نذكر منها الأبرز.

(١) "كتاب العلاقات النحوية وتشكيل الصورة الشعرية عند محمد عفيفي مطر" كتاب ألفه محمد سعد شحاتة عام ٢٠٠٣م وقسمه إلى بابين ناهضًا فيهما بتحليل بنية الصور الشعرية واستخدام فكرة العلاقات النحوية في شعر عفيفي مطر. الكتاب ساعد كثيرًا في هذا البحث حيث يُعطي معلومات هامة حول الشاعر وأشعاره.(٢) "محمد عفيفي مطر.. شاعر فكر": محمد صابر عبيد"؛ مجله: أفكار، حزيران ٢٠١٨ – العدد ٣٥٣. تشير نتائج هذا البحث أن الشاعر محمد عفيفي مطر شاعر فكر متميز في خصوصيته وتعبر قصائده عن زخم فكري عميق حتى تستقيم، ونجد أن ثمة تدرجًا شبه منطقي حكم التحولات الشعرية نحو بلوغ مرحلة شعر الفكر في تجربته. وعلى الرغم من أن ثمة انطلاقات شعرية هائلة تتدرج في سياق اللعب الشعري القائم على المهارة والخبرة وإتقان الصنعة في كتاباته الشعرية اللاحقة، غير أن تغليف الفكري على الشعري كان هو السمة الأبرز، مع أن الفضاء الشعري العام لشعريته بقي داخل إطار شعر الفكر من حيث هو وسيلة تعبيرية عن خصوصية تشكيلية متفردة ظل محافظًا عليها في كل ما كتب من شعر.(٣) "في حضرة الشاعر محمد عفيفي مطر": حسن الغرفي، مجلة الكلمة، يوليو ٢٠١٠ العدد ٣٩. يشير هذا البحث إلى الخصائص والمميزات التي يتمتع بها الشاعر والتركيز على منجزاته الشعرية التي كانت مغايرة لغيرها على مستوى الرؤية والجسارة اللغوية والإعمار الشعري والإيقاع، ولقد اختلف التعامل مع التراث عند شاعرنا باختلاف مراحل وأطوار التفكير والفهم. وتميزت كل مرحلة عنده بحضور لافت لجانب معين من هذا التراث دون تغييب لجوانب أخرى منه. فقد تجلى، منذ بداياته، ذلك الارتباط الكبير بالمأثورات الشعبية من حكايات ومواويل وسير وملاحم وأساطير شعبية عربية وخرافات.(٤) "تقنيات النسق الترسندالي دراسة تحليلية في شعر محمد عفيفي مطر": علاء هاشم مناف، كانون الأول، ٢٠١٤ أن هذه الدراسة تُعبر عن طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الواقع الشعري للشاعر محمد عفيفي مطر، ولأنها دراسة حديثة في انساق الشعر الحديث وعلاقته وموقعه في اللّغة.(٥) "الآنية العربية في النداء والتكشف مقاربة في شعر محمد عفيفي مطر" بحث كتبته نفيسة محمد قنديل سنة ١٩٨١م ونالت فيه قصب السبق لمساع أخرى تمت عن هذه الشخصية في مجال موضوع الآنية العربية المعاصرة.

(٦) "فيض الدلالة وغموض المعنى في شعر محمد عفيفي مطر" فريال جبوري غزول مقال نُشر في مجلة فصول العدد٣ عام ١٩٨٤.

(٧) "الحلم والكيمياء والكتابة: قراءة في ديوان أنت واحدها وهي أعضاؤك انتثرت للشاعر محمد عفيفي مطر" دراسة قدمها شاكر عبد الحميد لعام ١٩٧٨م ودخل بها إلى عالمه الشعري والمنطلقات الأساسية التي يتكئ عليها.

(٨) "الشعري والمقدس في إبداع محمد عفيفي مطر، قراءة لديوان النهر يلبس الأقنعة نموذجًا"، بحث نشره محمد فكري الجزار عام ١٩٩٧م وانصرف فيه الى المقدس بوصفه نسقًا من انساق عديدة تشكل بنية ثقافة الشاعر.

المبحث الأول: الطبيعة كفضاء رمزي في شعر عفيفي مطر

لم تكن الطبيعة لدى محمد عفيفي مطر مجرد ديكور شعري أو خلفية للأحداث، بل كانت فضاءً رمزيًا معقدًا وشريكًا أساسيًا في تجربته الشعرية. لقد تجاوز الشاعر النظرة التقليدية للطبيعة بوصفها موضوعًا خارجيًا للمحاكاة، وانتقل بها إلى مستوى تكون فيه مرآة للذات وساحة للصراعات الداخلية والخارجية. يرى محمد بيومي أن "الطبيعة من المصطلحات التي ترد في عالم الجمال لكنه مصطلح يحتاج إلى المادة التعريفية به، فالمعنى الأصلي للطبيعة هو كل ما خلق الله تعالى، لكن عفيفي مطر لا يكتفي بهذا المعنى، بل يعيد خلق الطبيعة شعريًا، ويشحن عناصرها بدلالات تتجاوز وجودها المادي.إن شعر عفيفي مطر يعج بالمفردات المستمدة من الطبيعة، لكنها لا تأتي بدلالتها المعجمية المباشرة، بل تكتسب أبعادًا جديدة داخل نسيج القصيدة. فالليل ليس مجرد غياب للضوء، والشمس ليست مجرد مصدر للدفء، والأرض ليست مجرد بقعة جغرافية. كل هذه العناصر تتحول إلى رموز حية تتنفس وتتألم وتأمل مع الشاعر. لقد استطاع أن يقيم علاقة جدلية بين الذات والطبيعة، حيث تمتزج مشاعره الخاصة –من حزن وأمل وغضب وحب– بمظاهر الطبيعة، فتصبح الطبيعة ناطقة بهمومه، ويصبح هو جزءًا من دورتها الأبدية.في قصائده، نجد كيف أن الظواهر الطبيعية تصبح شخصيات فاعلة. يقول في إحدى قصائده واصفًا تفاعل الطبيعة مع حالة إنسانية:

"زيتًا ونارًا أحرقت صمتَ المروج.

المرأةُ السمراءُ كانت ها هنا

في موسم الجوع المخيف

عرت لنا الفخذين.. بينهما رغيف

دارت حواليها عراجين السغب

مدت لنا بعض اللقيمات العجاف

فاهتزت الأيدي

أكلنا لقمةً". (عفيفي مطر، ١٩٩٨، ص ١٢٠)٧

هنا، تمتزج المرأة بالطبيعة البدائية (النار، الجوع) لتخلق صورة مركبة تعبر عن الفقر والحاجة. لم تعد الطبيعة مجرد إطار، بل أصبحت جزءًا من الجسد والمعاناة الإنسانية. هذا التماهي بين الإنسان والطبيعة هو السمة الأبرز في شعر عفيفي مطر، حيث تصبح الطبيعة مسرحًا للتعبير عن القضايا الكبرى كالوطن والحرية والظلم.وفي قصيدة أخرى يستخدم الشاعر محمد عفيفي مطر الطبيعة ليعبر عن حالته حيث يقول:

"فلتختبئ يا قطارًا يهرولُ في الحلم،

فالأرضُ مكشوفةٌ والمحطاتُ مفتوحةٌ تحت ضوء

السفر

اختبئ فالإقامة مأهولةٌ بوحوش القرابة

ولألفة الناعمة

جسد للعشيرة أعضاؤه انفرطت

كالعناقيد في ورق الملصقات– الأفيشات– وهج". (عفيفي مطر،١٩٩٨، ص١٢١)٨

في هذا النص، نرى كيف تصبح الطبيعة والواقع مسرحًا لحلم محموم وقلق. "الأرض مكشوفة" و"المحطات مفتوحة"، لكن هذا الانكشاف ليس انفتاحًا على الأمل، بل هو انكشاف أمام الخطر، حيث "القامة مأهولة بوحوش القرابة والألفة الناعمة"، في صورة تعكس تحول الأمان إلى تهديد. الأهم من ذلك هو كيف تتحول الطبيعة والتاريخ إلى جسد متحلل؛ "جسد للعشيرة" الذي "انفرطت أعضاؤه كالعناقيد" وتناثر على "ورق الملصقات". هنا، يدمج الشاعر بين عنصر طبيعي (العناقيد) وعنصر حديث (الملصقات) ليخلق صورة صادمة عن تفكك الجسد الجماعي (العشيرة/الوطن) وتناثره في فضاء عام ومبتذل. الطبيعة هنا ليست مجرد خلفية، بل هي شاهد ومادة لتجسيد هذا التفكك التاريخي والوجودي.

المبحث الثاني: تجليات الليل في شعر محمد عفيفي مطر

يحتل الليل مساحة واسعة ومهمة في شعر محمد عفيفي مطر، لكنه ليس ليلًا واحدًا ذا دلالة ثابتة. فالليل في شعره شخصية متقلبة، متعددة الأوجه، تعكس تعقيدات التجربة الإنسانية والواقع الذي يعيشه الشاعر. فتارة يكون الليل رمزًا للقهر والظلم والسجن، وتارة أخرى يصبح فضاءً للأنس والمناجاة واللجوء من قسوة النهار. وكما يرى نوال مصطفى إبراهيم، فإن "الليل كونه ظاهرة طبيعية له خصائصه الموضوعية المحايدة والمستقلة عن الوعي، أما الشعر فتتبدل ملامحه وتتغير وتختلف دلالته" (مصطفى إبراهيم ٢٠٠٩م، ص ١٠١).٩ وقد جسد عفيفي مطر هذا التبدل ببراعة فائقة.

أولا: الليل رمزًا للقهر والظلم في الكثير من قصائده، يرتبط الليل بالظلام السياسي والاجتماعي. يصبح الليل مرادفًا للسجن والقمع وغياب الحرية. إنه الزمن الذي تتسلط فيه قوى الشر، وتكمم فيه الأفواه. يصف الشاعر هذا الليل القاسي بقوله:

"فالليل القاسي.. مغروس في حضن الأرض

والظلمة تنفخ في الكون المقطوع

فثمر الريح من الثقب رجالًا صفرًا،

ونساء يأكلن الأطفال". (عفيفي مطر،١٩٩٨، ص١١٢) ١٠

هنا، الليل ليس مجرد ظاهرة طبيعية، بل هو كيان "قاسٍ" و"مغروس" في جسد الأرض، والظلمة "تنفخ" في الكون، مما يمنحها قدرة فاعلة ومدمرة. إن هذا الليل يلد مسوخًا ومشاهد مرعبة ("رجالاً صفرًا"، "نساء يأكلن الأطفال")، وهو تعبير رمزي عن بشاعة الواقع تحت وطأة القهر.

ثانيًا: الليل كفضاء للأنس واللجوء على النقيض من الصورة السابقة، يلجأ الشاعر إلى الليل أحيانًا كملاذ آمن وصديق ومساحة للتأمل والسكينة. يصبح الليل هو المكان الذي يهرب إليه الشاعر من صخب النهار وقسوته، ليناجي ذاته أو حبيبته أو وطنه. في هذا السياق، يتحول الليل إلى كائن رقيق وشفاف. يقول:

"آخ يا ليلاً زجاجي العيون

أطفى الآن عيون الحرس

علمني أهرب في نعش الجنون". (عفيفي مطر، ١٩٩٨، ص٢٠)١١

ثالثًا: الليل كحالة وجودية

في أحيان أخرى، يتجاوز الليل رمزيته السياسية والاجتماعية ليصبح حالة وجودية شاملة، تعبر عن حيرة الإنسان وصراعه مع الزمن والموت. إنه الدهر الذي يجمع في طياته كل المتناقضات. يقول الشاعر:

"هذا الليل يبدأ

دهر من الظلمات أم هي ليلة جمعت سواد

الكحل والقطران من رهج الفواجع في الدهور!" (عفيفي مطر، ١٩٩٨، ص٥٢٦)١٢.

هذا التساؤل "دهر من الظلمات أم هي ليلة؟" يكشف عن عمق الحيرة الوجودية. الليل هنا ليس مجرد فترة زمنية، بل هو الزمن كله، بتاريخه المليء بالفواجع. إنه ليل كثيف، مركب من "الكحل والقطران"، وهي مواد ترمز للسواد والقتامة، مما يعكس رؤية الشاعر التشاؤمية أحيانًا للوجود الإنساني. بهذا، نرى أن الليل في شعر عفيفي مطر ليس عنصرًا طبيعيًا بسيطًا، بل هو عالم شعري متكامل، ورمز مكثف قادر على احتواء كل تناقضات الذات والواقع.

المبحث الثالث: تجليات الشمس والقمر والكواكب

إذا كان الليل يمثل القطب المظلم في شعرية عفيفي مطر، فإن الشمس والقمر والكواكب تمثل القطب المضيء، لكنه ليس ضوءًا بسيطًا أو ساذجًا. فهذه الأجرام السماوية، مثلها مثل الليل، تكتسب دلالات مركبة ومتناقضة، وتصبح هي الأخرى رموزًا للأمل والحزن، للحياة والموت، للجمال والقسوة.

اولاً: الشمس بين الأمل والاحتراقتمثل الشمس في معظم التقاليد الشعرية رمزًا للأمل والوضوح والحياة، ويحتفظ عفيفي مطر بهذه الدلالة في العديد من قصائده. فالشمس هي التي تبدد الظلام، وهي رمز للثورة المأمولة واليقظة المنتظرة. لكن شمس عفيفي مطر غالبًا ما تكون شمسًا حارقة، مؤلمة، دامية، تعكس قسوة الواقع الذي لا يسمح للأمل بأن يكتمل. يقول:

"شفتاك داميتان يا شمس الحزينة

عيناك مدخنتان في سقف المدينة". (عفيفي مطر، ١٩٩٨، ص١٤٤)١٣

هنا، يخاطب الشاعر الشمس وكأنها كائن إنساني، لكنها "شمس حزينة"، شفتاها "داميتان" وعيناها "مدخنتان". هذه الصورة المأساوية للشمس تحول رمز الأمل إلى رمز للألم. إنها شمس تكابد وتحترق، تمامًا كما تكابد الذات الشاعرة والوطن. إنها تعبير عن أمل جريح، أمل لا يأتي إلا مصحوبًا بالألم والتضحية.

ثانيًا: القمر: الصديق والشاهديظهر القمر في شعر عفيفي مطر كصديق وكشاهد على الأحداث. إنه الكائن الليلي الذي يناجيه الشاعر ويبثه همومه. يطلب منه العون والسكينة، ويراه رمزًا للجمال الهادئ في مقابل قسوة الواقع. يقول في أحد أشهر مقاطعه:

"وأسند الهلال ظهره ومرفقيه فوق أذرع النخيل

ومال.. فاستحمت الزروع في الحقول

وأسقط الهلال قطرة من العرق

عبيرها ينفذ في العظام والعروق". (عفيفي مطر، ١٩٩٨، ص١٢٨)١٤

الهلال هنا ليس مجرد جرم سماوي، بل هو كائن متعب يستند على "أذرع النخيل"، و"عرقه" يتحول إلى "عبير" يحيي الأرض والنفوس. هذه الصورة تمنح القمر بعدًا إنسانيًا وأسطوريًا، وتجعله رمزًا للخصب والأمل الهادئ الذي ينمو في صمت الليل.

ثالثًا: الكواكب والنجوم: رموز الحيرة والمصير

أما الكواكب والنجوم، فتظهر كرموز للمصير المجهول، وللحيرة الوجودية. إنها النقاط البعيدة اللامعة في سماء مظلمة، والتي تعكس تساؤلات الشاعر حول الغيب والمستقبل. يقول:

"بخديك أعياد قلبي

وعيناك في أفقه كوكبان

يفران في لفتة الليل، لا يبرحان الضلوع

يطيران بي في سماء الرؤى والأغاني". (عفيفي مطر، ١٩٩٨، ص١٧١)١٥

عيون الحبيبة هنا تتحول إلى "كوكبين"، لكنهما كوكبان "يفران"، أي أنهما هاربان، لا يستقران، تمامًا مثل الرؤى والأحلام. هذه الصورة تعكس حالة القلق وعدم اليقين. الكواكب هنا ليست دليلاً يهتدى به، بل هي جزء من حالة الحيرة والترقب المؤلم، وهو ما يؤكده الشطر الأخير الذي يتحدث عن "القلب المريض" بأشواق الانتظار .بهذه الطريقة، يستخدم عفيفي مطر الأجرام السماوية كأدوات فنية لاستبطان الذات ونقد الواقع، محولًا إياها من مجرد عناصر طبيعية إلى رموز شعرية غنية بالدلالات.

المبحث الرابع: الأرض والوطن في مرآة الطبيعة

تحتل قضية الأرض والوطن مكانة محورية في شعر محمد عفيفي مطر، وكثيرًا ما يعبر عن هذه القضية من خلال توظيف عناصر الطبيعة. فالأرض لديه ليست مجرد تراب أو جغرافيا، بل هي الأم، والحبيبة، والجسد، والهوية. وهي في الوقت نفسه الجسد المنتهك، والأرض المسلوبة، والحلم الجريح. الطبيعة هنا تصبح هي المسرح الذي تتجلى عليه مأساة الوطن وآماله.

أولاً: الأرض كجسد أنثوي منتهك كثيرًا ما يشخّص عفيفي مطر الوطن في صورة امرأة أو أم، وهو تقليد شعري قديم، لكنه يطوره ليمنحه أبعادًا مأساوية حديثة. فالوطن–المرأة في شعره هو جسد يتعرض للانتهاك والسلب، لكنه يظل قادرًا على العطاء والحياة. يقول:

"هذه الأرض شهادة تتوقد بالزهر والعشب

والسنابل

وتتسع كالوليمة وتعقد مناديل الخبز على حوار القاتل والقتيل

طويت الصحف وجفت الأقلام". (عفيفي مطر، ١٩٩٨، ص١٠٢)١٦

الأرض هنا "شهادة تتوقد" أي أنها دليل حي على ما جرى. وهي "وليمة" يتصارع عليها "القاتل والقتيل"، في صورة تراجيدية تعكس الصراعات التي تمزق جسد الوطن، ورغم ذلك، تظل الأرض قادرة على إنبات "الزهر والعشب والسنابل"، لكن نهاية المقطع "جفت الأقلام" تشير إلى حالة من القمع ويأس من التغيير حيث لم يعد هناك من يكتب أو يشهد.

ثانيًا: الطبيعة كرمز للمقاومة والأمل على الرغم من الصورة القاتمة، لا يخلو شعر عفيفي مطر من أمل عنيد في انبعاث الوطن. ويأتي هذا الأمل أيضًا من خلال رموز الطبيعة. فالشجر الذي يضرب بجذوره في الأرض، والسنابل التي تنبت من جديد، والريح التي تحمل بذور التغيير، كلها رموز للمقاومة والصمود. يقول:

"لو جئتُ في عباءة الهزيمة

فلتسقطي يا أرضُ في حضني

ولتقطفي من ظلمة العين

أزهارك المشئومة". (عفيفي مطر،١٩٩٨، ص٢٦٥)١٧

في هذا المقطع، حتى في لحظة "الهزيمة"، هناك فعل مقاومة. الشاعر يطلب من الأرض أن "تسقط في حضنه"، في حركة احتواء وحماية. والأهم من ذلك، يطلب منها أن "تقطف من ظلمة العين أزهارها المشؤومة"، وهو تعبير مكثف عن ضرورة التخلص من آثار الهزيمة وزرع أمل جديد، حتى لو كانت أزهارًا "مشؤومة" ولدت من رحم المعاناة.

ثالثًا: التماهي بين الذات الشاعرة والطبيعة الوطنية

يصل عفيفي مطر إلى درجة عالية من التماهي بين ذاته وجسده وبين طبيعة وطنه. يصبح عرقه هو ماء النهر، ودمه هو طين الأرض، وحزنه هو ظلالها. هذا التوحد يعكس عمق انتمائه وشعوره بالمسؤولية تجاه وطنه. يقول:

"لمن هذه الأرض، هذي البلاد التي

أشرب دماءك واحفر قبرك الدامي

في الريح، واجعل ظلك الممدود طريدة، والشعر اشراكًا

وأنشوطة". (عفيفي مطر، ١٩٩٨، ص١٧٩)١٨

هنا، يخاطب الشاعر الأرض وكأنها جزء من جسده، فيشرب دماءها ويحفر قبره فيها. هذا الاندماج الكامل بين الشاعر والأرض يجعل من محنتها محنته الشخصية، ومن أملها أمله الخاص. الطبيعة هنا لم تعد مجرد رمز، بل أصبحت هي الذات الشاعرة نفسها.

الخاتمة:

في ختام هذا المقال البحثي الذي تتبع تجليات الوصف الطبيعي في شعر محمد عفيفي مطر، يمكننا الخروج بعدد من النتائج المهمة التي تؤكد على فرادة هذه التجربة الشعرية وعمقها. لقد أثبت التحليل أن الوصف، وخاصة وصف الطبيعة، لم يكن غرضًا ثانويًا أو تزيينيًا في شعر مطر، بل كان مكونًا أساسيًا وعمودًا فقريًا قامت عليه رؤيته الشعرية والفكرية.

أولًا، تجاوز محمد عفيفي مطر الوصف الحسي المباشر للطبيعة، وحوّلها إلى فضاء رمزي خصب. فلم تعد عناصر الطبيعة (الليل، الشمس، القمر، الأرض، الريح) مجرد ظواهر مادية، بل أصبحت شخصيات فاعلة، ورموزًا مكثفة قادرة على حمل دلالات معقدة تتعلق بالوجود الإنساني، والهم الوطني، والقضايا الاجتماعية.

ثانيًا، كشف المقال عن الطبيعة الجدلية لعناصر الطبيعة في شعره. فالليل ليس ظلامًا مطلقًا، بل قد يكون ملاذًا وسكينة. والشمس ليست نورًا خالصًا، بل قد تكون حارقة ومؤلمة. هذه الازدواجية في الدلالة تعكس رؤية الشاعر المركبة للواقع، الذي لا يؤمن بالحلول البسيطة أو الثنائيات الساذجة، بل يرى العالم في كل تناقضاته.

ثالثًا، برزت قضية الأرض والوطن كقضية محورية يتجلى فيها توظيف الطبيعة بأوضح صوره. لقد أصبحت الأرض لديه هي الأم والحبيبة والجسد المنتهك، وأصبحت عناصر الطبيعة هي الأدوات التي يعبر من خلالها عن حبه العميق لوطنه، وألمه لما يعانيه، وأمله العنيد في انبعاثه.

في النهاية، يمكن القول إن محمد عفيفي مطر قدّم نموذجًا شعريًا فريدًا استطاع فيه أن يعيد للطبيعة دورها الفاعل في الشعر، جاعلًا منها لغة خاصة به، يبوح من خلالها بأعمق هواجسه وأفكاره. لقد أثبت أن الطبيعة، حينما تمر عبر ذات شاعر مبدع وواعٍ، يمكن أن تتحول من مجرد مشهد صامت إلى قصيدة ناطقة بهموم الإنسان في كل زمان ومكان.

المصادر والمراجع:

(١) ابن جعفر، قدامة. (١٩٧٠). نقد الشعر. (تحقيق محمد عبد المنعم). بيروت: دار الكتب العلمية.

(٢) إبراهيم، نوال مصطفى. (٢٠٠٨). الليل في الشعر الجاهلي. عمّان: دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع.

(٣) ضيف، شوقي. (١٩٦٠). تاريخ الأدب العربي: العصر الجاهلي. (ط. ١١). القاهرة: دار المعارف.

(٤) عفيفي مطر، محمد. (١٩٩٨). الأعمال الشعرية: احتفالات المومياء المتوحشة. القاهرة: دار الشروق.

(٥) عفيفي مطر، محمد. (١٩٩٨). الأعمال الشعرية: من جمهرة البدايات. (ط. ١). القاهرة: دار الشروق.

(٦) مبروك، مروان عبد الرحمن. (٢٠١٤). النظرية النقدية: نظرية الاتصال الأدبي وتحليل الخطاب. القاهرة: دار الأدهم للنشر والتوزيع.

(٧) هدارة، محمد مصطفى. (١٩٦٣). اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري. القاهرة: دار المعارف.